

صورة الجزائر إبان العهد العثماني في أوب الرحالة المغاربة.

د. محمد حمودي

جامعة ابن باديس، مستغانم، الجزائر.

للكتابة أسباب وبواعث اختلف بنو الإنسان في اللجوء إليها، باختلاف الطبائع والحاجات والحالات النفسية، حتمها وجودهم الأنطولوجي منذ خلق البسيطة. فهي تعبير عن أحوال النفس وترجمة للمشاعر، وتصوير لطبائع البشر، وذكر للمناقب، ووصف للمناظر والبلدان، ووصف للعادات والأعراف والتقاليد. والحق "أن لكل شيء من العلم ونوع من الحكمة وصنف من الأدب سببا يدعو إلى تأليف ما كان منه مشتتا ومعنى يحدو إلى جمع ما كان منه متفرقا. ومتى أغفل حملة الأدب وأهل المعرفة تمييز الأخبار وتأليف كل نادر من الحكمة إلى مثله بطلت الحكمة وضاع العلم وأميت الأدب ودرس كل نادر"¹.

ونحسب أن أدب الرحلة يدخل ضمن الكتابات التي ميزت الأخبار، ورصدت الآثار، وكان لها فضل كتابة تواريخ الأقاليم، ومصدرا من مصادر التاريخية التي نقلت أخبار الأمم، والجماعات البشرية، طقوسها وطرائق معيشتها، وأحوالها العامة. وعلى هذا الأساس انماز عن غيره من أجناس الكتابة بوصفه "أوسع وأشمل تتداخل فيه المعارف الجغرافية والتاريخية والعمرانية وغيرها وهو شبكة من العلاقات بين المكان والزمان والرحلة واللغة وسياقات الكتابة وظروف التلقي العامة والخاصة"².

وفي هذا المضمار سنعرض إلى رحالين مغربيين ممن زاروا بقاع الجزائر وتجولوا بين أرجائها وطافوا بين نواحيها، فاختلفوا بأهلها وعاشوا بينهم، وقدموا انطباعاتهم حول مشاهداتهم لأقاليمها وتضاريسها، وما تزخر به من مناظر طبيعية خلابة. وجاء الاهتمام بهذين الرحالين لما تتسم به رحلاتهما من وصف دقيق وتصوير بارع حول كل ما شاهداه، فضلا عن الموضوعية والنزاهة التي تتبدى من خلال رحلاتهما.

1- رحلة التمقروتي (ت1003هـ):

وهو أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد التمقروتي (نسبة إلى قرية تمقروت بوادي درعة بالمغرب الأقصى). وهو جغرافي ورحالة، ولد في وادي درعة بمراكش، ولقد اختلف في سنة ميلاده بين 1520 و1560، وتوفي بها سنة 1033هـ - 1595م، ودفن بجوار القاضي عياض.

ولرحلة التمقروتي وتطوافه بين أرجاء البلاد الجزائرية أسباب، حيث كلفه السلطان السعدي أحمد المنصور بالسفر إلى المنصور، ومرد ذلك إلى أن العلاقات بين السعديين وآل عثمان كانت تتصف بالتوتر في معظم الأحيان، فخاف أحمد المنصور من أن يشن أترك الجزائر غارة على بلاده، فقرر أن يبعث إلى القسطنطينية هدايا للخاقان. وفي عام 1589 م كلف التمقروتي بهذه المهمة، ودامت رحلته حوالي عامين تقريبا، حيث عاد إلى تطوان في شهر نوفمبر عام 1591م.³

لقد نقل التمقروتي أخبار رحلته وانطباعاته ومشاهداته وجمعها في كتاب أسماه: "النفحة المسكية في السفارة التركية". تحدث عن الجزائر في ذهابه وإيابه، منطلقا من مراكش فتطوان ثم مرّ ببعض المدن الساحلية الجزائرية عبر البحر، وعاد من نفس الطريق إلى المغرب الأقصى. وكتاب "النفحة المسكية في السفارة

التركية" هو في حقيقة الأمر كتاب أدبي أكثر منه جغرافي، وفيه من الاقتباسات والاستطرادات أكثر مما فيه من المشاهدات.

لقد كان منطلق التمقروتي في رحلته من بلدة صغيرة تدعى هنين وهي مدينة صغيرة حسنة في نحر البحر، وهي عامرة عليها سور متقن وأسواق وزراعات وبها عمارات متصلة، احتلها الإسبان من سنة 1531 إلى 1534. ثم مرّ على مدينة وهران، وهي من المذنّ المحصنة، ويشير التمقروتي أن النصراري سكنوها، وبها عدة أبراج منها:

1- برج العيون 2- البرج الجديد 3- برج بني زروال 4- قلعة مرجاجو 5- برج بن زهوة.

وبعد وهران اجتاز التمقروتي مدينة مستغانم وهي مدينة ساحلية يعود في التعريف في بها إلى ابن عبد ربه الذي صورها على أنها مدينة مسورة بمحاذاة البحر على مصب وادي الشلف، وهي ذات عيون وبساتين وأراض ومياه، وأرضها صالحة لزراعة القطن. كما يتعرض بالوصف إلى مدن ساحلية وبحرية من بينها مدينة تنس، والتي بناها - حسب التمقروتي - البحريون الأندلسيون عام 262 هـ - 875 م. وتعود جذور سكانها الأصليين إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه⁴.

وبعد سفر مضمّن توقف التمقروتي بمدينة شرشال، وهي بلدة تتميز بالحصانة وكثرة العمارة، كما تعرف بزروعها وفاكهتها. ومنها شدّ الرحال إلى الجزائر، وكان يطلق عليها قديما جزائر بني مزغنة، فوجدها مدينة أهلة بالسكان، كثيرة الخصب. وغادرها في الفاتح من سبتمبر 397 هـ - 1589م. وفي طريقه تعرف على

مدينة دلس، وكانت حصنا منيعا غير أنه عفى واندرس، ولم يبق فيه إلا عمارة ضعيفة هشة.

وبالقرب من دلس تأتي مدينة بجاية، وهي مدينة عظيمة قديما عرفت بالعلم، وكانت مستقر العلماء والصالحين، ومن أشهرهم: أبو مدين شعيب دفين تلمسان، والشيخ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الأشبيلي، والشيخ أبو الحسن علي الأشبيلي. كما أن بجاية معروفة بمينائها، وهو مرسى حصين في خليج عظيم له مدخل ضيق في جبال شاهقة. غير أن التمقروتي وجدها آنئذ خرابا هدمها النصرى، ولم يبق منها إلا ديار قلائل على طرف البحر وقلعة صغيرة تسمى باللؤلؤة، ويقول ابن خلدون عنها: اللؤلؤة قصر جميل بناه الحمادي الناصر سنة 460هـ - 1068م. ويقول ابن عبد ربه عنها: بجاية مدينة عظيمة مستندة إلى جبل ومبانيها يركب بعضها بعضا وتسمى المقدمات.⁵ وفيها الوادي الكبير فيه السفن الصغيرة ينتزهون، وأهلها أهل شدى في كلامهم، وفيها يقول الشاعر:

بجاية كلها عقاب المشي في أرضها عقاب
يخفق في طرفها فؤادي كخرنق صاده عقاب
وقال فيها الشيخ أبو البقاء خالد⁶:

بلدة قدرها خطير وذكرها في كل بلد يطير
خطابها من الملوك كثير ومحلها من النفوس أثير

وفارق التمقروتي بجاية عبر سفينة مارا بمرسى جيجل ثم مرسى القصب وصولا إلى مدينة القل، وهي مدينة رومانية عتيقة فيها ديار وجامع وسوق. ومن القل اتجه إلى بونة، وتعرف ببلد العناب لانتشار شجر العناب بها. واستند التمقروتي في استقاء معلوماته عن المدينة على ابن عبد ربه الذي وصف بونة

بأنها كثيرة اللحم والحوت واللبن والعسل وأكثر لحومها البقر، ويصح بها السواد دون البياض. كما عول على أبو البقاء خالد الذي قال عنها: "وبونة مدينة مكيبة وقلعة حصينة شهيرة الامتاع بآنة الارتفاع سامية البناء، موضوعة على نسبة حسنة في الاعتدال والاستواء". ثم أنشد يقول:

نَهْرٌ يَسِيلُ كَمَا يَذُوبُ نِضَارُ وَتَذُوبُ فِي أَيْدِي السُّقَاةِ عُقَارُ
فَإِذَا اسْتَقَامَ فَصَارَ مَبَاهِي الضَّبَا وَإِذَا انْحَنَى جَدَعَ بِهِ فَسَوَارُ

ولقد مكث التمقروتي بمرسى بونة يومين، فزار قبر الولي الصالح أبي عبد الملك مروان بن علي بن القطان البوني الأندلسي الأصل، وهو صاحب تفسير كتاب "الموطأ" للإمام مالك. ومن بونة سافر إلى ميناء بنزرت التونسي.⁷

ومن نافلة القول، الإشارة إلى أن التمقروتي تميز بدقة الملاحظة وصحة المصدر المنوط بمشاهداته العينية أو المرويات، أو المعلومات المأخوذة عن المصادر المظان الموثوق بها. والحق أنه سلك مسلك الجغرافيين والمؤرخين باستحقاق كبير، إذ عكف على "رصد المظاهر الطبيعية من جبال وأغوار وسهول وصحار ومفازات وبحار وبحيرات وأنهار ومياه وعيون ... وعلى تصوير النظام الاجتماعي والثقافي والسياسي بذكر طبقات الناس وأحوالهم وعاداتهم وتقاليدهم وألبستهم ومآكلهم ومشاربهم... ومظاهر ثقافتهم وفنونهم في التربية والتعليم..."⁸.

2- رحلة العياشي (ت 1090هـ - 1679م):

هو أبو سليم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المالكي ولد بقبيلة آيت عياش قرب تافالنت بالمغرب الأقصى في شعبان 1037هـ - مايو 1628م، تعلم على يد عدة مشايخ مثل عبد الرحمن بن القاضي وعبد القادر الفاسي الذي أجازته عام (1007هـ - 1091هـ). ثم طاف بالكثير من البلدان والأمصار في المشرق

طلباً للعلم والمعرفة توفي بالمغرب الأقصى عام (1090هـ - 1679م) بسبب مرض الطاعون، مخلفاً إرثاً معرفياً يحتوي على: منظومة في البيوع، وأخرى في التصوف سماها: "تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية"، وله كتاب في التراجم وسمه "اقتفاء الآثار بعد زهاب أهل الآثار"، وآخر عنوانه "تحفة الأخلاء بأسانيد الأجلاء"، وشعر ديني 9.

الرحلات أنواع كثيرة، اختلف الدارسون في تحديدها، وقد حصرها محمد الفاسي في خمسة عشر نوعاً، هي: الحجازية، والسياحية، والرسمية، والدراسية، والأثرية، والاستكشافية، والزيارية، والسياسية، والعلمية، والمقامية والبلدانية، والخيالية والفهرسية، والعامية، والسفارية 10.

وتتدرج رحلة العياشي ضمن الرحلات الدينية، ذلك أنه يمّم وجهه شطر بيت الله الحرام، حيث أشرق ثلاث مرات: أولاً كانت عام 1059هـ، وكانت ثانيها عام 1064هـ، بينما كانت الثالثة عام 1073هـ. غير أنه عرف برحلته التي سماها "ماء الموائد"، وهي رحلة ضخمة إلى المشرق ثم العودة منه. وهي مدار الدراسة ههنا.

ولقد انطلق العياشي من سجلماسة إلى توات إلى بني عباس إلى والن ومرورا بالقلعة، فورقلة إلى مقوسا ثم تماسن وتقرت، طرابلس، فمصر. وأما عند العودة فمر على سيدي عقبة وبسكرة وقرية أمليلي وأولاد جلال، فالأغواط ثم وصولاً إلى فقيق.

وتجدر الإشارة في هذا السياق، إلى أن العياشي خالف التمروتي وغيره في رحلته، فإذا كان هذا الأخير سلك طريق البحر، فإن العياشي سلك طريق الصحراء، وجاب الواحات، عبر اتجاهين: الأول شمال جنوب حتى توغل في

الصحراء إلى واحات توات مساييرا وادي قير ووادي الساورة ووادي طمغابو، أما الثاني، فكان شماليا شرقيا من أو قرب إلى الدغامشة إلى القليعة إلى ورقلة ثم إلى تماسين ونقرت. ومرد هذا اختيار هذا المسلك وفرة الماء والكأ وكثرة الواحات. مصورا في كل ذلك جغرافيتها الوعرة، وطيبة ناسها ودمائة أخلاقهم، وأوليائها الصالحين.

على أن ما يهنا ههنا تصويره للمدن الجزائرية التي سلكها، بداءة من قرى بني عباس، وهي ثلاث قرى متصلة في سفح جبل صغير على شفر الوادي، وفيها نخل كثير وفاكهة وبساتين حسنة وفيها ساقية من الماء الجاري العذب. وللتفصيل فهذه القرى تبعد نحو 225 كلم من بشار. ثم تركها العياشي ونزل ببلاد توات.

وتعتبر توات من الواحات الكبيرة بالجنوب تمتد من الغرب إلى الشرق وتضم عدة قرى أو القصور، وأشهر مدن توات: تميمون وقرارة. ومن أهم القرى التي دخلها العياشي قرية "تسابت" وتقع على بعد ثلاثين كيلومتر من وادي الساورة، وفيها قبر الولي الصالح محمد بن صالح المعروف "بعريان الراس" تلميذ الولي الصالح المشهور سيدي أبي الرواين دفين مكناس.¹¹

ويشير العياشي إلى أن من أسباب نزوله بتوات ومن معه ممن أزمعوا الحج، غلاء صرف الذهب بمنطقة تافالنت، فأخروا الصرف إلى توات لأن الذهب فيها أرخص، وكذا سعر القوت من الزرع والتمر، وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من بلاد "تنبكت" ومن "أقيرز" ومن أطراف السودان. ثم نزل الرحل بقري "الدغامشة"، ومنها إلى بلاد "أوكيرت"، وهي قرى كثيرة ذات نخيل جم، وهي معدودة من بلاد تجورارن أو "تقراين" وتعني باللهجة المحلية المخيمات، وتعرف اليوم "بقرارة"¹².

وبعد ارتحال طويل نزل العياشي بقرية تسمى والن، وقد لاقى من العنت ما لاقى وصولاً إليها لما يحيط بها رمال كثيرة أعيت حتى الإبل على حدّ قوله. وليس فيها إلاّ نخلات معدودة قد يبس أكثرها وبقيت جدران تسفى عليها الرياح وحجرات من جريد النخل وعرش من الجريد. ولم يجد بها إلا رجلاً واحداً ومعه نساء من قرابته يعولهن. ونزل بمدينة القليعة وهي تصغير قلعة، وهي قرية حصينة من حجر صلب تتموقع في سفح جبل منقطع عنه، بها آبار كثيرة طيبة الماء وبعض النخيل، وهي تحت إمرة سلطان ورقلة (واركلا).¹³ وورقلة التي دخلها العياشي قبل غروب الشمس، معروفة ببابها المسمى باب السلطان، وسميت بوارقلة نسبة إلى بني وارقلة الذين قدموا أيام الفتح الإسلامي من الشمال والغرب، ثم استولوا على المدينة. ومن غرائب تقاليد هذه البلدة، استخراج عيون الماء الغزيرة بحفر الآبار. ومن وارقلة نزل العياشي ببلدة مقوسا، وهي تابعة لوادي ريغ. وبعدها دخل بلدة تماسن، وهي مشهورة بكثرة العمارة والنخيل، وما أثار انتباهه طول صومعة مسجد البلدة، حيث تبلغ نحو مائة درجة¹⁴.

على أن العياشي لم يمكث طويلاً ثم واصل رحلته تجاه تُقُرت*، وكانت آنذاك تمثل قاعدة أو عاصمة وادي ريغ ومسكراً يحكمها أولاد الشيخ أحمد بن جلاب وأسلافهم من بني مرين. يتسم أهلها بالتواضع والنية الصالحة والأخلاق الحسنة. ويتعاملون بالدرهم، وهي عبارة عن قراريط صغيرة اثنان وثلاثون منها في ريع ريالة.

وبعد أن أدى العياشي مناسكه، وتمكن من زيارة الكثير من أمصار الشرق، اتخذ في عودته طريق الجنوب مسلماً، فمر عبر مدينة سيدي عقبة، وهي تنتسب إلى عقبة بن نافع الفهري فاتح بلاد أفريقية، وقبره كان مزار الناس، وعليه مسجد

عجيب وحوله قرية كبيرة في وسط هذا البسيط وفي مسجده مئذنة كبيرة متقنة البناء وفي أعلاها عمود.¹⁵

ومن سيدي عقبة نزل الرحال إلى بسكرة، وكانت آنذاك تمثل قاعدة بلاد الزاب، وقد ألقى حوماتها خالية ومساجدها دائرة. ولاقى بها بعض مشايخها من أهل الخير والبركة، ومنهم: سيدي محمد الصالح، وسيدي محمد بن بوعلي. ولم يمكث العياشي طويلا بها وعدل يمينا في أرض وعرة حرشة وسرنا إلى قرب المغرب. ومنها عرج إلى قرية أولاد جلال، وهي من أكبر قرى الزاب، وهي مدرسة للطلبة المهاجرين، وهم يسمون الغرباء مهاجرين، وفي الغد مروا بأولاد سيدي مخلوف إلى مدينة الأغواط، قال أبو العباس أحمد الفاسي عنها: "الأغواط بلدة طيبة وعليها أجنة ونخيل ولها أبراج وسور دائر بها غير متقنة البناء ولها عيون ماء تجري بداخلها، معروفة بفواكهها، السفرجل الجيد الطيب الرائحة والدلاع والبطيخ والرمان"¹⁶. وكان قد أصابها آنذاك وباء، فلم يدع أهلها أحدا يظل بها لئلا تنتقل إليه العداوة، كما شهدت في ذلك الوقت غلاء فاحشا في مبيعاتها وتعاملاتها التجارية.

قرية بوسمغون من القرى الأخيرة التي دخلها العياشي، وتقع بالقرب من قرى "رباً" وجدها أرخص من كثير من البلاد التي مرّ عليها قبل، ومنها ولّى كل زائر إلى مدينته، مراكش ومكناسة وفاس وتافاللت. وقد بعث العياشي برسالة ترجم فيه مشاعره حملها أصحابه إلى بعض إخوانه معبرا فيه عن مودته وحنينه بعد زيارة بيت الله الحرام، وضمنها بيتين من الشعر¹⁷:

حملتُ جنين الشوق في بطن مكة زمانا إلى أن آن منها انفصاله
فزاد نموا فاستوى عندما غدا ثلاثين شهرا حملة وفصاله

ومرورا بوادي الناموس، كان النزول بقرية "سندانة"، وهم من أفقر أهل البلد، ثم الوصول إلى فقيق. وتقع شرق جنوب المغرب الأقصى من أعمال وجدة بالقرب من الحدود الجزائرية وتحتوي الواحة على سبعة "قصور" أشهرها قصر زناقة.

هي، إذن، صورة الجزائر ومدنها وقراها في العهد التركي، رصدها التيمقروتي والعياشي من خلال رحلتيهما، وفيهما "تلمس صحوا ومزاجا رائقا، وعيونا ثاقبة، وقدرة فائقة على التقاط المرئيات الدالة"¹⁸، وفيهما أيضا من الفوائد العلمية والتاريخية والجغرافية ما يجعلهما تدرجان ضمن التراث العربي التاريخي والجغرافي. وذلك بما استرشدناه من معارف قيمة على مستوى العمران والعادات والتقاليد والأعراف، ومعرفة بالأنساب والعلماء والأولياء الصالحين، من خلال إنعام النظر، والمعاناة المباشرة، ومساءلة أهالي المنطقة والاختلاط بهم، ومن ثم معرفة جذورهم الأصيلة. كما ساهمتا في استكتاب تاريخ الأمم بتعرضهما لفترة زمنية مهمة للجزائر، إذ لا نعثر عن أخبارها السياسية والاقتصادية والثقافية وأنماط المعيشة لدى شعبها لدى المؤرخين أنفسهم.

مكتبة البحث:

- 1- الإكسير في فكاك الأسير، محمد بن عثمان المكناسي، تح: محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، (المقدمة).
- 2- الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، مولاي بالحميسي، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

3- في الخطاب التداولي، صورة المغرب في المجلة الألمانية "فكر وفن" سعيد علوش، مجلة العرب والفكر العالمي، ع7، صيف 1989، مركز الإنماء القومي، لبنان.

4- الرحلة العياشية، مج1، أبو سليم العياشي، تح: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2006.

5- مراجعات مفهومية في الثقافة العربية الإسلامية، فرحات الدريسي، أديكوب للنشر، تونس، 1999.

الهوامش:

-
- (1) فرحات الدريسي، مراجعات مفهومية في الثقافة العربية الإسلامية، أديكوب للنشر، تونس، 1999، ص160.
- (2) نفسه، الصفحة نفسها.
- (3) مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص16.
- (4) م. س، ص45 وما بعدها.
- (5) م. س، ص48-49.
- (6) نفسه، ص50.
- (7) م. س، ص54-55.
- (8) فرحات الدريسي، مراجعات مفهومية في الثقافة العربية الإسلامية، ص165.
- (9) أبو سليم العياشي، الرحلة العياشية، مج1، تح: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2006، ص29.
- (10) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، تح: محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، (المقدمة).
- (11) الرحلة العياشية، ص78.

- (12)- نفسه، ص79.
- (13)- م. س، ص111.
- (14)- نفسه، ص83 وما بعدها.
- (*)- عاصمة وادي ريغ بين ميزاب غربا ووادي سوف شرقا يختلط تاريخها بتاريخ قبيلة ريغة سنجة وبني أفرن بالحروب بين ابن غنية والموحدين 1844.
- (15)- نفسه، ص100.
- (16)- الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ص107 عن الرحلة الفارسية.
- (17)- الرحلة العياشية، ص548-549.
- (18)- سعيد علوش، في الخطاب التداولي، صورة المغرب في المجلة الألمانية "فكر وفن"، مجلة العرب والفكر العالمي، ع7، صيف 1989، مركز الإنماء القومي، لبنان، ص103.